

## هل نشهد معالم شرق أوسط جديد؟



انتشر مقطع فيديو على وسائل التواصل الاجتماعي في الأشهر الأخيرة يظهر الرئيس السوري الجديد، أحمد الشرع، وهو يمتطي جوادًا أسودًا وسيماً في حلبة رمالية للفروسية تزّينها بضع أشجار نخيل كثيفة. يظهر في المقطع بمفرده، مرتدياً سترة جلدية أنيقة، بينما يدور الجواد بخطواته العالية داخل الحلبة.

الموسيقى التصويرية المصاحبة للفيديو هي أغنية تمجد الخلافة الأموية التي حكمت الشرق الأوسط في القرنين السابع والثامن. تقول كلمات الأغنية في بدايتها: ”بنو أمية من نسب ذهبي، واسمهم أثار الخوف في ملوك الفرس“. وقد حُذف السطر الأول الأصلي من الأغنية الشعبية والذي يقول: ”أنا عربي مسلم، لست تابعًا لإيران“. ومع ذلك، فإن الرسالة تصل بوضوح: سوريا، بعد أن تحررت من نفوذ إيران الشيعية، عادت إلى أيدي الأغلبية السنية في البلاد.

بالنسبة لكثير من العرب، مثلت تلك السلالة العصر الذهبي في التاريخ الإسلامي. فبدءًا من دمشق عام

661 ميلادي، أسس الأمويون أول مملكة إسلامية، وهزموا الفرس وامتد نفوذهم إلى آسيا الوسطى وعبر شمال إفريقيا على مدى 90 عامًا. واليوم، يجد البعض صدى واضحًا لهذا التاريخ في تحرر سوريا من الهيمنة الإيرانية.

إن انهيار النفوذ الإقليمي الإيراني، لا سيما طردها من سوريا، حليفها العربية الرئيسية، يمثل نقطة تحول لم يشهدها الشرق الأوسط منذ أكثر من عقدين. وقد يتمثل أحد جوانب إعادة التوازن الجيوسياسي في التراجع عن الطائفية الصريحة التي ابتليت بها المنطقة منذ أن أدى الغزو الأمريكي للعراق إلى سيطرة الشيعة على بغداد.

ومع سقوط حكومة الرئيس بشار الأسد في سوريا في ديسمبر الماضي، تفكك ما أشار إليه العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني يومًا بـ“الهلال الشيعي”، وهو شبكة من الحلفاء المسلحين تمتد من إيران، مرورًا بالعراق وسوريا، وصولًا إلى مناطق نفوذ حزب الله في لبنان. لقد كانت حكومة الأسد في سوريا، وهي دولة قائمة بذاتها وليست مجرد ميليشيا، حجر الزاوية بالنسبة للإيرانيين ومركزًا لدعم القوى الأخرى في ما يسمى بـ“محور المقاومة” ضد إسرائيل والغرب.

بطبيعة الحال، لا يفسر الدين سوى جزء يسير مما يحدث في الشرق الأوسط. فلسنوات، استخدمت قوى إقليمية مثل إيران والمملكة العربية السعودية الدين كغطاء لمصالح مادية. وفي إعادة الاصطفاف الحالية، أصبحت القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية هي المحك. ويؤكد ذلك حقيقة أن هذا التغيير لم يكن مدفوعًا من قبل المسلمين السنة أو الشيعة، بل من قبل إسرائيل. ومع ذلك، فقد عمدت إيران، في سعيها لفرض نفوذها، إلى الدفع بأجندة طائفية لسنوات، وهو ما ردت عليه دول الخليج العربية في كثير من الأحيان بالمثل. ومن غير المرجح أن تتمكن إيران من فعل ذلك مرة أخرى في القريب العاجل.

السؤال المطروح الآن هو ما الذي سيبرز بعد أن تتوقف الخلافات السنية الشيعية عن كونها أداة في هذا التنافس الجيوسياسي. وقد أصبحت سوريا الآن الاختبار الرئيسي لنظام مختلف، فالدول ذات الأغلبية السنية، بقيادة السعودية وتركيا، عازمة على دفن الخلافات الطائفية التي تعتبرها تهديدًا للاستقرار السياسي والتنمية الاقتصادية.

قد لا يكون هناك اختبار أصعب من سوريا، فقبل عقد من الزمان، عندما أنقذت القوات الإيرانية نظامًا شيعيًا يمثل أقلية في العاصمة دمشق من حركة معارضة متجذرة في أغلبية سنية، أدى ذلك إلى تصعيد التوترات الطائفية إلى مستويات جديدة في جميع أنحاء الشرق الأوسط. وفي سوريا، لم تتبدد هذه التوترات بالكامل. بالإضافة إلى ذلك، فإن الحكومة الجديدة في دمشق لها جذور في جماعات جهادية سنية، وهي عدو لدود لكل ما هو شيعي، لكن قيادتها أدركت أن أي اندلاع مستمر للقتال الطائفي سيقضي على جهود بناء دولة مستقرة وموحدة.

ويقول مصطفى فحص، وهو معلق سياسي له علاقات عميقة في الأوساط الشيعية في لبنان: “عندما تعيد دمشق إلى السنة، فإنك تغير الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط بأكملها“. ويضيف: “إنه التاريخ“.

العصر الطائفي الجديد

لسنوات طويلة؛ سعى حكام إيران إلى تحويل المسلمين الشيعة خارج حدودهم إلى قاعدة دعم طبيعية لهم، ضاغطين عليهم للنظر إلى إيران كراعٍ سياسي وروحي وثقافي. إلا أن الثورة الإسلامية عام 1979 هي التي أطلقت العنان لحقبة جديدة وحديثة من التنافس السني الشيعي.

وأثار النظام الديني الذي استولى على السلطة في إيران قلق العالم العربي، لأن زعيم البلاد، آية الله روح الله الخميني، سعى إلى تصدير النسخة الإيرانية من الإسلاموية الثورية - مع المرشد الأعلى كمرشد روحي

وسياسي - إلى الدول الإسلامية الأخرى. لم ينجح هذا المخطط أبدًا، لكن إيران تمكنت من استخدام أيديولوجيتها لكسب الحلفاء وتقويض الخصوم.

في لبنان، استخدم حسن نصر الله النموذج الإيراني في قيادته لحزب الله لأكثر من 30 عامًا، حتى اغتياله في غارة إسرائيلية في سبتمبر/أيلول الماضي. لكن استنساخ الدولة الإيرانية في لبنان لم يكن ممكنًا قط. فقد اعترف السيد نصر الله في مقابلة معي عام 2002 بأن بلاده متعددة الثقافات إلى درجة يصعب معها فرض تفسيرات تقليدية للإسلام الشيعي، مثل فرض الحجاب على جميع النساء أو حظر الكحول.

وكانت الدول العربية قلقة من سعي إيران لزعزعة استقرارها، خاصة بعد أن منحتها الانتفاضات العربية فرصة لتعزيز سلسلة من القوى الوكيلة في جميع أنحاء المنطقة، بما في ذلك الحوثيون في اليمن ومختلف الميليشيات العراقية. وظلت السعودية، على وجه الخصوص، معادية بشكل علني. ومع ذلك، كان قلقها من محاولة طهران تقويض جيرانها أكبر من قلقها من انتماء إيران إلى طائفة إسلامية مختلفة. وكان المؤمنون المتشددون من كلا الطائفتين هم من ركزوا بشكل أساسي على الخلافات الطائفية.

وكانت الخطب المناهضة للشيعية التي تصور أفراد هذه الطائفة على أنهم دون البشر عنصرًا أساسيًا في القنوات الفضائية السعودية التي استضافت رجال دين سنة متشددين في التسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وفي دعايتها الرسمية، دأبت المملكة على تسمية الحكومة الإيرانية بـ“الصفويين”، في إشارة إلى الإمبراطورية الشيعية الثيوقراطية التوسعية في القرن السادس عشر. وفي عام 2016، أعدمت الحكومة السعودية رجل دين شيعيًا بارزًا والعديد من النشطاء، متهمًا إياهم، من بين أمور أخرى، بالسعي للتدخل الإيراني.

وفي مقابلة عام 2018 مع مجلة “ذي أتلانتيك”، وصف ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان المرشد الأعلى الإيراني، آية الله علي خامنئي، بأنه أسوأ من هتلر. وقال: “لقد حاول هتلر غزو أوروبا. المرشد الأعلى يحاول غزو العالم”، ووصف الأيديولوجية الكامنة وراء الثورة الإيرانية بأنها “شر خالص”.

ولكن بحلول عام 2023، قررت السعودية ودول الخليج الأخرى تخفيف حدة التوترات الإقليمية من خلال الانفراج والدبلوماسية تجاه طهران. وكان الأمير محمد قد قام بالفعل بتفكيك المؤسسات الدينية السعودية التي كان يعتقد أنها تغذي التطرف، بما في ذلك تلك التي أوجت الطائفية.

وتواجه السعودية - مثل الكثير من دول العالم العربي - ضغوطًا ناجمة عن طفرة سكانية. فالمنطقة بحاجة إلى وظائف لشبابها. وقد ساهم غياب الآفاق المستقبلية في السابق في دفع عجلة التجنيد للجماعات الجهادية. والآن، تأمل الحكومات في المنطقة في تغيير هذه الديناميكية من خلال التنمية الاقتصادية الطموحة، بما في ذلك خطط لمدن مستقبلية، ومبادرات في مجال الذكاء الاصطناعي، وغيرها من المشاريع التقنية.

إن الفوضى الإقليمية من شأنها أن تعرقل خططهم. ولهذا السبب، أثار الهجوم الإسرائيلي على إيران، الذي انضمت إليه الولايات المتحدة، في البداية حالة من الاستياء. لم تكن دول الخليج قلقة فقط من استهدافها من قبل إيران ردًا على ذلك، بل من تكرار ما حدث في العراق، عندما أدى الغزو الأمريكي إلى انهيار النظام، وتدفق اللاجئين، وسنوات من إراقة الدماء الطائفية.

ولكن في نهاية المطاف، حطم الصراع القصير وهم القوة الإيرانية. وعلى الرغم من عدم اليقين بشأن مدى تضرر البرنامج النووي الإيراني من الضربات، إلا أن فشل طهران في حماية نفسها كشف عن نقاط ضعف متجذرة، ويشير إلى بزوغ نظام إقليمي جديد.

سوريا: حقل التجارب

سوريا، التي دمرتها ما يقرب من 14 عامًا من الحرب الأهلية، هي الآن حقل التجارب لما هو قادم. لم يكن لدى نظام الأسد الكثير من القواسم المشتركة مع الجمهورية الإسلامية، لكنه تحالف مع طهران بسبب العداء المتبادل لإسرائيل والزعيم العراقي صدام حسين. لذا، يُنظر إلى عودة سوريا إلى الحاضنة السننية وكأنها قطعة مركزية في أحجية الصور المقطوعة التي تستقر فجأة في مكانها.

إن السعودية وتركيا والإمارات - وجميعها دول ذات أغلبية سننية - مصممة على إعادة إعمار سوريا وتحويلها إلى مفترق طرق اقتصادي للمنطقة، تربطها الطرق وخطوط أنابيب النفط وكابلات الألياف الضوئية وإمدادات الطاقة. ومع ذلك، فإن الحكومة المركزية الضعيفة بحاجة إلى الدعم. وتقدر تكلفة إعادة الإعمار بما يتراوح بين 250 و400 مليار دولار، وهو مبلغ لا يمكن للاقتصاد السوري المحتضر توفيره.

أولاً وقبل كل شيء، سيتعين على الحكومة الجديدة احتواء الخلافات الطائفية العنيفة التي غدت - وتغذت على - الحرب الأهلية والتي لا يزال من الممكن أن تحول دون ظهور سوريا كدولة موحدة. فقد أدت مذبحه دموية للعلويين، الطائفة الأقلية التي تنتمي إليها عائلة الأسد، إلى مقتل ما يقدر بنحو 1600 شخص في مارس/آذار، بينما قتل انتحاري ما لا يقل عن 25 شخصًا في قداس للروم الأرثوذكس في دمشق في يونيو.

وتثير البدايات الجهادية للمليشيا غير المتجانسة التي شكلت نواة الحكومة الجديدة تساؤلات. ويقول البروفيسور نادر هاشمي، الخبير في سياسات الشرق الأوسط والإسلام في جامعة جورجتاون: "القوميون السوريون، وخاصة المجموعة التي وصلت إلى السلطة في سوريا، ينحدرون من منظور اليمين المتطرف، المتطرف للقاعدة، السلفي السنني، الذي كان متجذرًا لاهوتيًا وسياسيًا في منظور عميق مناهض للشيعية". ومع ذلك، يعتبر بعض المحللين موجة المشاعر المناهضة للشيعية بين السوريين وسيلة لتوجيه اللوم إلى إيران.

ويقول محللون مقربون من الحكومة السورية إنها تسعى لإنهاء الصراع الطائفي، وكذلك يفعل رعاتها العرب والأتراك. لقد اعتاد الزعماء العرب على التنافس الشرس في أماكن مثل لبنان، مما أدى إلى تمزيق البلاد من خلال تمويل ميليشيات متنافسة. أما في سوريا، فيبدو أنهم يحاولون العمل جنبًا إلى جنب.

ويقول العقيد هشام مصطفى، وهو محلل سياسي وإستراتيجي سوري انشق عن الجيش خلال الثورة: "إن توازنًا جغرافيًا جديدًا أخذ في الظهور بالفعل". ويضيف: "لم يتبلور بالكامل بعد، لكنه يتشكل بوضوح - خاصة في أعقاب التراجع الذي لا رجعة فيه للنفوذ الإيراني من سوريا وإعادة ترتيب أوسع للشؤون العربية بعيدًا عن الشعارات الطائفية".

وأقر العقيد مصطفى بأن بعض الناس يستحضرون التاريخ والدين لإصدار بيانات سياسية طائفية حول دور سوريا الجديد. وقال إن المقارنات مع الأمويين تشير إلى أن "القيادة السياسية السورية تستعيد هويتها العربية الأصيلة وتتحرر من الهيمنة الأجنبية".

وقال الدكتور مصطفى العيسى، وهو محلل سياسي سوري، إن القيادة الجديدة لم تستخدم مصطلح الأمويين رسميًا. وأضاف: "الحكومة السورية تعمل بنشاط على رآب الصدع بين الطوائف السورية. كانت الأداة الأبسط - والأخطر - التي استخدمها النظام السابق هي التفتيت الديني، ليس فقط بين السنة والشيعية، بل حتى داخل كل طائفة أو مجتمع".

"بين نارين"

لا تمانع الدول العربية في دفع إيران إلى ما وراء حدودها وتقليص تهديدها النووي، لكنها منزعجة من أن ذلك جاء نتيجة الهجوم العسكري الإسرائيلي في جميع أنحاء المنطقة بدعم من الولايات المتحدة. كانت

العلاقات الودية التي كانت دول الخليج تعززها مع إسرائيل إشكالية بالفعل، نظرًا للرأي العام في الشرق الأوسط الغاضب من الحرب في غزة وخسائرها الفادحة.

تلك الحرب، التي تقع أيضًا خارج الإطار الطائفي، تمثل عقبة هائلة أخرى أمام رؤى عالم عربي أقل تقلبًا وأكثر ترابطًا في أعقاب تراجع إيران. فطالما بقيت القضية الفلسطينية دون حل، ستظل مصدرًا لعدم الاستقرار.

ويقول بدر السيف، أستاذ التاريخ في جامعة الكويت: ”نحن عالقون بين نارين هنا. من المؤكد أن دول الخليج لا تريد أن تكون في نظام إقليمي تقوده إسرائيل“.

ليس من الواضح ما الذي سيظهر مع تضاؤل الصراع الطائفي. فالسياسة الخارجية الإيرانية علامة استفهام، وكذلك مدى سعي القوى الوكيلة التي ساحتها في جميع أنحاء المنطقة لإعادة تشكيل نفسها.

تم وضع أحدث سابقة في التسعينيات، عندما انطوت إيران على نفسها لإعادة البناء، وهي تترنح من الدمار الذي خلفته حرب دامت ثماني سنوات مع العراق. وفي محاولة للمصالحة الإقليمية، تخلى المعتدلون الذين وصلوا إلى السلطة إلى حد كبير عن محاولة تصدير الأيديولوجية الثورية للجمهورية الإسلامية. لذلك، ابتعد الكثير من المسلمين الشيعة في المنطقة عن هذا الجهد أيضًا.

يعتقد المحللون أن شيئًا مشابهًا يمكن أن يحدث الآن. فمع تضاؤل النفوذ الإيراني، يمكن للدول العربية أن ترد، وقد تسعى المجتمعات الشيعية من سوريا إلى المملكة العربية السعودية إلى البحرين إلى الاندماج المحلي بدلًا من الانفصال.

تقول لورانس لوير، المتخصصة في شؤون الشرق الأوسط في مركز الدراسات الدولية بجامعة سيانس بو في باريس: ”سيكون من المثير للاهتمام أن نرى في الأشهر والسنوات القادمة كيف ستأخذ مراكز القوة الشيعية في لبنان، في العراق، وحتى في البحرين وباكستان، في الاعتبار ضعف إيران، وقدرتها على فرض شبكات المحسوبية هذه بين الطوائف الشيعية في جميع أنحاء الشرق الأوسط“. وتضيف: ”ما يمكن أن نراه هو ديناميكيات وطنية شيعية، ديناميكيات محلية، تأخذ الأسبقية على المحاولات الإيرانية لتشكيل الشيعة في دائرة مواتية لإيران“.

المصدر: نيويورك تايمز